مصطلح الاكتساب اللّغوي بين الملكة وقواعد النحو

The Term Linguistic Acquisition Between The Queen And The Grammar

عثمان بيدي

جامعة الجزائر 2 الجزائر bidiathmane@yahoo.com

تاريخ الارسال 13/ 12/ 2020 .	تاريخ القبول 28 /03/ 2021.	تاريخ النشر 15 / 04 / 2021 .

الملخص

لقد أصبح موضوع تعلّم اللغة وتعليمها من المواضيع التي تثير اهتمام كثير من الباحثين على اختلاف مستوياتهم وتوجهاتهم، فقد بحثوا في المصطلح وفي الأسس والأساليب التربوية، وفي العوامل التي تجعل المتعلم يقبل على تعلم اللغة، والتّحكم في مهاراتها. وتهدف الدراسة إلى عرض أهم هذه الأسس والأساليب التي تسهم في اكتساب اللغة، و تؤكد أهمية الممارسة في اكتسابها تعلما وتعليما، فهل الاكتساب يتم بالممارسة فقط ؟ أم يجب أن تراعى فيه أشياء أخرى تجعل تعلّم اللغة سهلا ؟

ومن اهم النتائج المتوصل اليها:

-أن الوسيلة الوحيدة لبعث الحياة في ما يمتلكه الفرد من رصيد هو الاستعمال والممارسة اللغوية.

- وأنّ اللغة العربية لا تكتسب بالقواعد النظرية وحدها، كما أنها لا تعلّم دون قواعد، بل ينبغي توظيف القواعد في النصوص لتكتسب اللغة وهي في حالة حركة، فأساس اكتساب الملكة اللغوية هو ممارسة الكلام؛ لأنه بانعدام الممارسة تنعدم القدرة على الكلام والتصرف فيه. ولا يتحقق تعلم اللغة بحفظ القواعد وحدها، ولا كما يرى البعض الاخر

Abstract

The topic of language learning and teaching has become one of the topics that arouse the interest of many researchers of Term and different levels and orientations. They have examined the foundations and pedagogical methods, and the factors that make the learner accept language learning and control their skills. The study aims to show the most important of these foundations and methods that contribute In the acquisition of language and emphasizes the importance of practice in the acquisition of learning and education, so is the acquisition is made by practice only? Or should it take into account other things that make learning the language easy?

Among the most important results reached:

- The only way to breathe life into what the individual possesses of balance

is to use language and practice. - And that the Arabic language is not acquired by theoretical rules alone, nor is it learned without grammar, but the rules should be used in texts to acquire the language while it is in a state of movement, the basis of acquiring the linguistic queen is the practice of speech; Because the lack of practice lacks the ability to speak and act on it. Language learning is not achieved by memorizing the rules alone, nor as some others see learning them without rules, but rather it is necessary to practice and rules together.		تعلمها دون قواعد وانما يحتاج الأمر إلى الممارسة والقواعد معا.
Keywords :**Term** Acquisition ; queen, grammar, language, learning, education, industry ;		**كلمات مفتاحية:** مصطلح، اكتساب؛ ملكة؛ قواعد؛ لغة؛ تعلم؛ تعليم؛ صناعة؛

المؤلف المرسل: **عثمان بيدي** الإيميل: **bidiathmane@yahoo.com**

1.مقدمة:

لقد أصبح موضوع تعلّم اللغة وتعليمها من المواضيع التي تثير اهتمام كثير من الباحثين في مجال اكتساب اللغة ، ومن هنا جاءت **إشكالية البحث هل اكتساب الملكة يتم عن طريق الممارسة فقط ام يتطلب الإحاطة بالقواعد** ؟ وللإحاطة بهذه الإشكالية وجب الوقوف عند مجموعة من القضايا كتعريف الملكة، وذكر بعض العوامل التي تسهم في تعلم اللغة وتعليمها وما مدى نجاعتها؟ وهل الاكتساب يتم بالممارسة فقط ؟ أم يجب أن تراعى فيه أشياء أخرى تجعل تعلّم اللغة ميسورا ؟

ومن أهداف البحث أن الممارسة وحدها على أهميتها لا تكفي لتعلم اللغة إذا لم تكن قائمة على برنامج مخطط ومنظم

وأن الممارسة المنظمة اذا لم تراع دوافع وحوافز المتعلمين التي من أهمها حاجة التبليغ والتعامل لا تكفي بل يجب الجمع بينها وبين تعلم قواعد

وقد اعتمدت في بحثي على المنهج الوصفي التحليلي وكذا الاستقرائي الذي يقوم على دراسة بعض الجزئيات والوصول منها الى حكم ينطبق عليها وعلى غيرها

2.اللغة والملكة

1.2 تعريف اللغة

إنّ اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية كما يرى ابن خلدون(ت 808هـ)، تنشأ في المجتمع وينشئها هذا المجتمع، وقد بيّن ابن جني (ت 392 هـ) أنّ اللغة خاصة بالمجتمع "أما حدّها فإنها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم[1] وقد وضح ابن سينا(ت428 هـ) كيف ينشئ افراد المجتمع هذه اللغة بالاتفاق بينهم، فقال: "وسواء كان اللفظ أمرا ملهما وموحى به علمه من عند معلم أول، أو كان الطبع قد انبعث في تخصيص معنى صوت هو اليق به كما سميت القطا قطا بصوتها، أو كان قوم اجتمعوا فاصطلحوا اصطلاحا أو كان شيء من هذا قد سبقه فاستحال يسيرا الى غيره؛ بحيث لم يشعر به، أو كان بعض الالفاظ قد حصل على جهة، والبعض الآخر على جهة أخرى، فإنها إنّما تدل بالتواطؤ والدلالة بالألفاظ"[2]، ويؤكد ابن مسكويه (421هـ) أن السبب الذي أحتيج من أجله

الى الكلام هو أنّ الانسان الواحد كان غير مكتف بنفسه في حياته، ولا بالغ حاجاته... فلم يكن بد من ان يفزع الى حركات بأصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح،[3] وقد قال ابن خلدون" اعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد لإفادة المتكلم، فلا بدّ أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم[4]، إذاً فاللغة بناء على ما سبق هي أصوات مركبة تتألف من كلمات وجمل لها دلالات يعبّر بها الانسان عما يحتاجه في تواصله مع غيره.

2.2 تعريف الملكة:

لقد كثر الحديث عن الملكة في كتب التراث، فقد ذهب الفارابي(ت 339هـ) الى أنّ الملكة تحصل نتيجة التكرار لشيء من نوع واحد عدة مرات، وهي قسمان: ملكة خلقية و ملكة صناعية " واذا كرر فعل شيء من نوع مرارا كثيرة حدثت له ملكة اعتيادية إما خلقية أو صناعية [5]، ويضيف في موضع آخر أنّ هذا التكرار لا يتم دفعة واحدة، بل يتم في ازمان متقاربة ولمدة طويلة" والذي يكتسب به الانسان الخلق او ينتقل لنفسه عن خلق صادفها عليه هو الاعتياد، واعني بالاعتياد تكرير فعل الشيء الواحد مرارا كثيرا زمانا طويلا في أوقات متقاربة"[6]

ولعلّ قول ابن مسكويه(ت 421هـ) يشرح ما قاله الفارابي في وصفه للملكة بأنّها اعتيادية إما خلقية أو صناعية فهي عنده بمصطلحنا الحديث لا شعورية بعد اكتسابها عن طريق التدريب المستمر، و شعورية يفكر فيها الانسان في حالة اكتسابها " الخلق حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية، ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب، وربّما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا"[7].

ويمكن الاستعانة بقول ابن سينا (ت 428) الذي يعبر عن مفهوم الملكة بالصناعة التي يعيها ويريدها الانسان عندما يقوم بها، ولكنّه لا يشعر، ولا يعي كيفية القيام بها، وهذا طبعا بعد اكتسابها "فالصناعة ملكة نفسانية تصدر عنها أفعال إرادية ..."[8]

أما ابن خلدون فقد أفاض في الحديث عن الملكة فهي عنده "صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته"، [9] فالملكة إذاً هي الالمام بقوانين ومبادئ، وهي صفة في النفس، وتبدو نظرة ابن خلدون إليها من حيث هي صفة في النفس من خلال استعماله الكلمات التي تنم عن الحالة في كلامه على الملكة وهي درجات:

1 . الملكة مستحكمة: يقول فيها:"واعلم انّ فن الشعر من بين الكلام، كان شريفا عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلا يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم، وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن ملكاتهم كلها"[10]

2– الملكة جيدة كما وصفها "لا تحصل الا بالتكرار ولذلك لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي، وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ[11]

3. الملكة راسخة: الرسوخ عنده لا يكون الا بالتكرار حتى تحصل الملكة فيظنها الشاهد طبيعية، "فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتها رسوخا وقوة"[12]

4. الملكة مستقرة: فصناعة الكلام عنده شعرا أو نثرا إنّما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنّما المعاني تبع لها، وهي أصل "وان حصول ملكة اللسان العربي إنّما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد"[13]

ويوضح الفرق بين الملكة والطبع، فالملكة فعل اختياري غير غريزي او فطري، وإنّما يشبه الطبع عندما يتم نتيجة المران والقدم، فيظنه الشاهد طبيعيا وهو ليس كذلك؛ لأنها تحدث دون فكر وتعب مثل الطبع" الأفعال الاختيارية كلّها ليس شيء منها بالطبع، وإنّما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة، فيظنها الشاهد طبيعية" [14]، ويقدم مثالا ليوضح الفرق بين الملكة والطبع عند كلامه على تحدث العرب بالعربية الفصحى، وهو أنّ كلامهم هذا ليس طبعا جاهزا هكذا دون

تعلّم، وإنّما هو ملكة تكوّنت وتمكنت فأصبحت لا شعورية، فظن أنّها طبع، ولذلك يظن كثير ممن لم يعرف شأن الملكات أنّ الصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعي، ويقال كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك، وإنّما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنّها جبلة وطبع [15] وهنا يقرّب ابن خلدون الاكتساب من الطبع وتصبح السليقة عنده بهذا المعنى وليدة الاكتساب.

ويضيف ابن خلدون أنّ هذه الملكة لا تتم دفعة واحدة، ثم إنّ الصنائع منها البسيط ومنها المركب ...، ولا يحصل ذلك دفعة، وإنّما يحصل في أزمان واجيال" [16]. فاكتساب الملكة عنده يمر بمراحل تطول أو تقصر .

لكن الفرق بين الامرين أنّ الملكة قبل اكتسابها تكون شعورية كما سبق القول، أما بعد اكتسابها فتكون لاشعورية، أما الطبع فإنّه منذ البداية غير شعوري؛ لأنّه فطري ولد مع الانسان [17].

ويعرف "ابن خلدون" الملكة اللغوية في موضع آخر بأنّها صناعة وقدرة على تبليغ الأغراض والمقاصد، ولا تتم من خلال المفردة وحدها ، وإنّما من خلال التركيب وهو نوعان تركيب أساس غرضه التبليغ(الملكة الأساسية)، وتركيب بياني غرضه الاجادة البيانية، فيقول "اعلم أن اللّغات كلّها شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة ونقصانها، وليس ذلك بالنظر الى المفردات، وإنّما بالنظر الى التراكيب، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال فيبلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع وهذا هو معنى البلاغة[18]، ويبدو التركيز هنا على التراكيب والجمل والنصوص، وتكرار ممارستها مرات عديدة مما يجعل الملكة صفة ثابتة، ويمكن تلخيص خصائص الملكة عند ابن خلدون على النحو الآتي:

-أنّها مكتسبة وليست فطرية.

-أنّها نتيجة تكرار الفعل

-أن اشتراك الفكر والعمل يحولها الى صناعة

-أنّها مشروطة باستمرار الممارسة

-ورسوخ الملكة متوقف على عمق اكتسابها

-العلاقة جدلية بين الملكة والاكتساب

وخلاصة القول: أنّ الملكة عند العلماء العرب هي صفة راسخة وثابتة، لكنّها تكون حالا متغيرة في البداية، وتصدر عنها أفعال ارادية أقرب الى الطبع الذي يختلف عنها في كونه غير إرادي

3 – دوافع اكتساب اللغة الذاتية والاجتماعية.

لقد بحث العلماء في الدوافع الذاتية والعوامل الاجتماعية التي تدفع بالإنسان الى تعلم اللغة

3. 1- الدوافع الذاتية لاكتساب اللغة

- **الطبع:**

لقد اكد الجاحظ أهمية الطبع عندما قال: "وأنا اوصيك ان لا تدع التماس البيان والتبيين اذا ظننت ان لك فيهما طبيعة، وانهما يناسبانك بعض المناسبة، ويشاكلانك بعض المشاكلة، ولا تهمل طبيعتك فيستولي الإهمال على قوة القريحة، ويستبد بها سوء العادة" [19] وهذا المفهوم ينطبق على اكتساب اللغة وان كان الجاحظ قد حصره في اكتساب ملكة البيان والتبيين وما يندرج تحتهما من علوم وأدب وفنون أخرى.

– الرغبة

لقد بيّن الجاحظ أيضا أنه لا يمكن ان تدرك النفس ما تريده الا إذا كانت محبة وراغبة فيه، وأما إذا كانت كارهة فلا ينتظر منها نتيجة، واستأنس بقول "بشر بن المعتمر" إن الشيء لا يحن الا إلى ما يشاكله ...؛ لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود مع والشهوة المحبة "[20]، فتعلم اللغة مشروط بحبها والرغبة فيها.

– الحاجة:

وضح الجاحظ دور الحاجة في تعلم اللغة فقال:" وبالجملة أن من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة الى ذلك، وعلى قدر الضرورة اليها في المعاملة يكون البلوغ فيها والتقصير عنها"[21] فالجاحظ يربط تعلم اللغة بقوة الحاجة إليها أو ضعفها.

وقد بين ذلك أيضا "أبو حيان التوحيدي" حين اعتبر ان الحاجة هي التي تسهّل تعلم اللغة عندما قال: فإنها (أي الكلمات) أو الجمل توافيه عند الحاجة وتستصحب أخواتها على سهولة"[22] فالتعبير اللغوي إذاً مرتبط ارتباطا وثيقا بالوعي التام بالحاجة ، فعلى قدر ما يعي الانسان الأشياء التي يحتاجها يكون أقدر على الإفصاح والتعبير عنها.

2.3 الدوافع الموضوعية لاكتساب اللغة:

– الاستماع:

يشكل الاستماع العنصر الأساسي الذي يرتكز عليه اكتساب الملكة اللغوية، "فهو المهارة التي تستعمل غالبا في الحياة اليومية، والتي لعبت قبل وجود الكلمة المكتوبة دورا مهما في نمو الملكات، ويعتبره ابن خلدون أبا الملكات اللسانية في قوله:" والسمع أبو الملكات اللسانية"،[23] وتراث العرب نقل الينا عن طريق السماع، ولهذا أعطاه ابن خلدون المنزلة الأولى.

–النطق:

يأتي النطق بعد السمع، وهو الذي ترتكز عليه الممارسة بالدرجة الأولى، وهو الأصل كما نعلم في اللغة " وتدريب اللسان على الكلام يعتبر طبيعة مثل أي تدريب، ومعرفة الكلام وإجادته ترجع الى القول فيه، وقد قال رجل لخالد بن صفوان: "إنّك لتكثر(أي تطيل الكلام)، فقال: أكثر لضربين أحدهما فيما لا تغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان، فإن حبسه

يورث العقلة، فإنما اللسان عضو اذا مرنته مرن [24] فتحسين الملكة يتحقق عن طريق المواظبة على الكلام.

– الفهم:

يشترط الفهم لإدراك الملكة، فإن تردد التلميذ ما لا يفهم ولا يدرك معناه من النصوص او المفردات غير مجد تربويا ولا علميا؛ لأنّ حفظ القوائم الصماء من المفردات مفصولة عن واقعها اللغوي والتركيبي يعد جهدا ضائعا سريعا ما ينسى [25] فالحفظ إذاً مقرون بالفهم؛ لان الحفظ دون الفهم لا يؤدي الى امتلاك اللغة، وقد اثبت علم النفس التربوي الحديث أهمية فهم المادة الدراسية في اكتساب الملكات العلمية بصفة عامة، فالملكة اللسانية لا تربى من خلال نصوص تحفظ دون ان تفهم، فلا تحصل الملكة بالحفظ دون الفهم والتطبيق والتحليل والنقد والتقويم للنصوص المحفوظة او المدروسة في رأي بعضهم .

– الممارسة:

لا يختلف اثنان أنّ التعلم الصحيح للغة يكون بالممارسة؛ أي الفعل وتكراره، وترتكز الممارسة على السمع كما قال ابن خلدون "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كلّ لحظة، ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة "[26] فالمماسة اذاً ضرورية لنمو الملكة.

ويرى الجاحظ ان الممارسة هي الأساس في تعلم أي شيء مهما كان ، ويتكلم على الجوارح التي منها اللسان كما نعلم، وانّ منع هذه الممارسة يؤدي الى الصعوبة في الكلام

"وأي جارحة منعتها عن الحركة، ولم تمرنها على الاعمال أصابها من التعقيد على حساب ذلك المنع"[27] فالممارسة تذلل صعوبات التعلم وتنشط جميع أجهزة استقبال المعرفة

وقد بين اندري مارتيني André Martinet ان اللغة هي صوتية بالدرجة الأولى، ولذلك فإننا نجد من يتكلم قبل ان يكتب قائلا: يجب ان لا ننسى ان العلامات اللغوية البشرية تعتبر بالدرجة الأولى صوتية، بل إنه منذ مئات الآلاف من السنين كانت هذه العلامات صوتية، واليوم كذلك، ان البشرية في الغالب تعرف ان تتكلم قبل ان تكتب، ونحن نتعلم الكلام قبل القراءة[28] ولهذا جعل علماء اللسان في العصر الحديث ميدان عملهم اللغة المنطوقة أساسا، ولا شك أنّ للخبرة دورا في تعلم اللغة، ولقد اعتبر بعض علماء اللغة ارتباط القول بالعمل في ميدان اللغة بمثابة التجارب في العلوم.

فالممارسة لا تتم في نظر "ابن خلدون" إلا عن طريق حفظ كلام العرب "فوجه التعلم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها ان يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم والجاري على اساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ولقن العبارة عن المقاصد منهم [29]

ولا يهمل في الممارسة الاستعمال الفردي، وهو تعبير الفرد عمّا في نفسه بكلام العرب، وهنا يظهر الابتكار والابداع في اللغة "ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عبارتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب الفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة "[30] فالاستعمال الفردي عنوان التميز

4- النحو و تعلم اللغة

4-1 ضرورة النحو في تعلم اللغة

لقد اختلف كثير من الدارسين حول أهمية قواعد النحو في تعلم اللغة، ويمكن ان نجمل هذا الاختلاف فيما يلي :

فريق يدعو الى تعليمها منذ البداية أي اتخاذها غاية للحصول على ملكة اللغة، وفريق يدعو الى ممارسة النصوص فقط، وثالث يدعو الى التوسط ، غير أن من العلماء من يرى الاكتفاء فقط ببعض القواعد المفيدة لاكتساب اللغة، فالقواعد عندهم نوعان: نوع عملي يفيد في الحصول على الملكة، وآخر نظري يفيد المتخصصين فقط، وقد بيّن الجرجاني المسألة فقال: أما النحو فظننته ضربا من التكلف وبابا من التعسف وشيئا لا يستند الى أصل ولا يعتمد فيه على عقل، وان ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ فهو فضل لا يجدي نفعا ولا تحصل منه فائدة" [31]، فالجرجاني يقتصر على العملي فقط الذي يفيد المتعلم في حياته ، وقد بين كذلك "أبو حيان التوحيدي" أن هناك مقدارا من النحو خاصا بالحصول على ملكة اللغة، اما الباقي فلا يلزم معرفته[32] ويتفق الجرجاني وأبو حيان التوحيدي في الاكتفاء بما هو ضروري فقط في النحو لاكتساب الملكة.

ويذهب على خلاف ذلك ابن خلدون إلى أنّ اركان علوم اللسان أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفتها ضرورية، [33] و أنّ النحو مقدم على هذه العلوم المذكورة فقال: " والذي يتحصل ان الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبيّن أصول القواعد بالدلالة، فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة " [34] وعلم النحو عنده مقدم على باقي العلوم الأخرى لما له من أهمية، ويؤكد هذه الأهمية ابن فارس في كتابه الصاحبي في فقه اللغة" قائلا: "من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو اصل الكلام، ولولاه ما تميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا نعت من توكيد" [35].

و يرى "عبد القاهر الجرجاني " أنّ الالفاظ وهي عارية من الاعراب مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها"[36]

2-4 عدم ضرورة النحو في تعلم اللغة

يرفض ابن خلدون في موضع آخر اعتماد النحو النظري طريقة لامتلاك اللغة نظرا للحالة التي وصل اليها في عصره، فاللغة ملكة كباقي الملكات الصناعية، وهي مستغنية عن النحو جملة ، فنظرته الاجتماعية الى اللغة جعلته يثور على وضع اللغة في قوالب ثابتة "ويرى اننا كثيرا ما نجد من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين، اذا سئل أحدهم كتابة سطرين الى أخيه او ذي مودة او شكوى ... أخطأ فيها عن الصواب واكثر من اللحن[37] فالكثير من الناس يعبر بطلاقة دون ان يكون لهم تعمق في النحو، فالعربي القديم لم يعرف النحو بل نشأ في بيئة عربية حصل منها اللغة كملكة، وفي هذا يقول ابن خلدون:" وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئا من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أنّ تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وانها مستغنية عنها بالجملة" [38] فالعرب القدامى يحسنون العربية بسليقة؛ لأنهم نشأوا في بيئة العربية واستغنوا عن النحو

و يريد ابن خلدون ان يركز المتعلم في الممارسة على الكلام كتابة ومشافهة والاقتداء في ذلك بكلام العرب حفظا ومطالعة[39] دون تعلم قواعد النحو وحدها.

وقد ادرك ابن خلدون ان المتعلم للنحو بعد سنوات طويلة من هذا التعليم لا يعتدل لسانه ولا يستقيم بيانه، وان الملكة اللسانية غير صناعة العربية " ويرفض ابتداء ان يكون للنحو(القواعد الصناعية) صلة بالكلام [40] لما علقت به من صعوبات عديدة تصد المستعمل للغة عن الحذق فيها، **وتتمثل هذه الصعوبات في:**

أ – المطولات في النحو فهي تجعل هدفها التفريعات، وتفوّت المقصود منها، فيصعب على المتعلم دراستها "فمما أضر بالناس في تحصيل العلوم والوقوف على غاياته كثرة التأليف،

واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم باستحضار ذلك، فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها، او اكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة اذا تجرد لها فيقع القصور ولابد"[41] ؛أي دون تحصيل تلك العلوم فهي عائق تفوت عنه فرصة تعلم اللغة وهي الهدف.

ب– المختصرات (المتون) يرى ابن خلدون "انهم قصدوا بالاختصار الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها" [42] و يرى ان كثرة التأليف في العلوم عائق عن تحصيلها فيقول: اعلم انه مما أضر الناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف"[43] اختصارا وتفصيلا

ج – تعدد المذاهب النحوية المختلفة من بصرية وكوفية وبغدادية وغيرها ساهمت في توسيع دائرة مؤلفات النحو لكن الاختلافات بين هذه المذاهب تعيق اكتساب اللغة

د – تعدد مناهج التأليف فيه أدي الى اختلاف المصطلحات "وبخاصة منهج الكوفيين الذين تفردوا بكثير من المصطلحات تبعا لمخالفاتهم التي تعج بها الكتب"[44]

هـ – الحفظ دون الفهم: وهو من العوائق بل ما يجب التركيز عليه هو توظيف القواعد وفهمها لا حفظها عن ظهر قلب

و–التجريد في القواعد النحوية : أشار ابن خلدون الى ضرورة البعد بالمتعلمين عن التجريد ، ورأى أن الممارسة الحسية ادعى الى ترسيخ الملكة ،وقد يعود تذمر ابن خلدون من إلى أمرين:

الامر الأول: يعود للمدرسين وطرق تدريس النحو

والامر الثاني .كثرة تفصيلات مسائل النحو وأحكامه وحواشيه التي ملئت بها الكتب على مر التاريخ قديمه وحديثه" فكيف يحصل – يربك – المتعلم الناشئ العربي على تلك الملكة مع

هذه المؤلفات الكثيرة والمذاهب المتعددة والآراء المتنافسة والمصطلح المختلف وقد ينقضي عمره ولا يفي بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور–ولابد–دون رتبة التحصيل". [45]

وقد قسم احد الباحثين النحو الى قسمين النحو الوظيفي والنحو التخصصي ويعني بالنحو الوظيفي "مجموعة القواعد التي تؤدي الوظيفة الأساسية للنحو، وهي ضبط الكلمات ونظام تأليف الجمل ليسلم اللسان من الخطأ في النطق و يسلم القلم من الخطأ في الكتابة " اما النحو التخصصي " فهو ما يتجاوز ذلك من المسائل المتشعبة والبحوث الدقيقة التي حفلت بها الكتب الواسعة"[46] وعلى هذا الأساس يجب ان يكون تعلم النحو غير مقصود لذاته، بل ينبغي ان يكون وسيلة لا غاية .

إنّ رأي ابن خلدون في تدريس النحو الوظيفي يركز على النصوص العربية للحصول على الملكة، وعلى الحدس اللغوي الذي يكتسب من الممارسة العملية للغة، غير ان ما هو حاصل في نظره هو أنّ القواعد أصبحت هي المقصد من اللغة، في حين ان معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لا نفس كيفية فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا" [47] فتعلم النحو عنده يبقى في إطاره النظري دون الاستفادة منه في التطبيق.

ولقد ميز النحاة العرب الأوائل بين المعلومات اللغوية، فهي عندهم نوعان الأولى تخص المتعلم وهي معرفة نحوية يكتسبها الانسان وتمكنه من الاتصال بغيره، والثانية تخص العالم بأسرار اللسان وهي معرفة علمية محضة[48] تدخل في مجال التخصص

واكتساب المتعلم الملكة التبليغية هو ما يصبو اليه كلّ متعلم، لكن الاكتفاء –اثناء التعليم– باكتساب المتعلم القواعد النحوية وحدها دون مراعاة ما تستلزمه عملية الخطاب يعد ناقصا، والنحاة العرب لم ينظروا الى اللسان في ذاته بل نظروا الى تصرف الناطق بمبانيه وتفريعه،

ومعرفة القواعد ومعرفة تطبيقها شيئان مختلفان، "فإن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية، و انها مستغنية عنها بالجملة في التعليم ، وقوانين الاعراب تعطي علم اللسان صناعة، ولا تعطيه ملكة كما قال ابن خلدون[49]

فتعلم قواعد النحو والاكثار منه لا يفيد المتعلم الذي لم يتقن التعبير نطقا وكتابة، وقد حذر البشير الابراهيمي من ذلك فقال: " امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم يأت التركيب بعجيبة، ولا تعمّر اوقاتهم كلها بالقواعد، فإن العكوف على القواعد هو الذي صير علماءنا مثل القواعد، وانما القواعد أساس، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتم البناء"[50]

الاستنتاج:

انّ اكتساب اللغة وتعلمها واعادتها الى التداول ليس بالأمر السهل، والانسان يكتسب لغته او يصنعها بنفسه وفقا للمسموع في مجتمعه، وان الوسيلة الوحيدة لبعث الحياة في ما يمتلكه الفرد من رصيد هو الاستعمال والممارسة اللغوية، فاللغة العربية لا تكتسب بالقواعد النظرية وحدها، كما أنها لا تعلّم دون قواعد، بل ينبغي توظيف القواعد في النصوص لتكتسب اللغة وهي في حالة حركة ، فأساس اكتساب الملكة اللغوية هو ممارسة الكلام فإذا انعدمت الممارسة انعدمت القدرة على الكلام والتصرف فيه، فتعلم اللغة لا يتحقق بحفظ القواعد ، ولا كما يرى البعض الاخر تعلمها دون قواعد وانما نحتاج للممارسة وللقواعد التي تضبط الكلام وتصححه؛ أي يجب ربط القواعد بالنصوص أو الكلام، فالتعلم السليم للغة في عصرنا يستوجب الممارسة والقواعد حتى يقع التوازن بين النظري والتطبيقي.

قائمة المراجع

[1] - ابن جني (أبو الفتح عثمان)،(د–ت) الخصائص، تحق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط2، ج1، ص33

[2]. ابن سينا(أبو علي الحسين)، ، 1974، المنطق، العبارة، تحق محمد الخضيري ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص .3

[3]. ابن مسكويه(أبو على أحمد) تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق، المطبعة العلمية، مصر 1329، ص 76

[4] – ابن خلدون(عبد الرحمن) المقدمة ، تحق علي عبد الواحد وافي ، ط2، لجنة البيان العربي ، بيروت، 1968، ج 4، ص 7

[5] . الفلوابي(أبو نصر محمد)، الحروف، 1970، تحق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت لبنان، ، ص135

[6] – الفارابي(أبو نصر محمد)،1346ه رسائل الفلوابي، ط1 مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ص 7

[7] . ابن مسكويه أبو على أحمد)، 1329ه، تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق، المطبعة العلمية، مصر، ، ص37

. ابن سينا(أبو علي الحسين)، 1954، البرهان من كتاب الشفاء، تحق عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ص192[8]

[9]. ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ج3، ص1389

[10]. المصدر نفسه، ص791

[11]. المصدر نفسه، ص720

[12]. المصدر نفسه، ص775

[13] . المصدر نفسه ص 778

[14]. المصدر نفسه ، ج4، ص1346

[15]. المصدر نفسه ، ص 1399

[16]. المصدر نفسه، ص1057

. ينظر بن زروق (حسين)، 1986، النظريات العربية حول حصول ملكة اللغة رسالة ماجستير جامعة الجزائر، ص 42[17]

[18]. ابن خلدون، المقدمة مصدر سابق، ج1، ص 1088

[19]. الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر)، (د–ت)، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، ج1، ص112

[20]. المرجع نفسه، ج1، ص77

[21]. المرجع نفسه، ج5، ص 290

. التوحيدي (أبو حيان التوحيدي)، (د –ت)الامتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت، ج2، ص 146[22]

[23]ابن خلدون ، المقدمة، مرجع سابق، ص703 -

. المبرد(أبو العباس محمد بن يزيد)، 1999، الكامل في اللغة والأدب ، دار الفكر العربي، بيروت، ج1، 246[24]

. ميدني(ابن حويلي الأخضر)، أثر المحفوظ الأدبي في نمو ملكة اللسان)، مجلة المبرز ، ع 19، 2003[25]، ص38

[26]. الجاحظ ، البيان والتبيين، ج4، ص1389

[27]. المرجع نفسه ، ج1، ص 154

[28] André martinet elements de linguistique generale ,p15

[29]. ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج4، ص1396

[30]. المرجع نفسه، ج4 ص1396

. الجرجاني(عبد القاهر)، دلائل الاعجاز ، تحق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، 1978[31]، ص6

[32]. ينظر التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، مرجع سابق، ج1، ص167

[33]. ابن خلدون ، المقدمة، مرجع سابق، ص 751 -

[34]. المرجع نفسه، ص 751

[35]. ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تح مصطفى الثوبي ، مؤسسة بدران، 1964، ص57

[36]. الجرجاني(عبد القاهر)، دلائل الاعجاز، تعليق وشرح عبد المنعم خفاجي، القاهرة، 1969، ص 339

[37] . ابن خلدون، المقدمة، ص777

[38] . المرجع نفسه، ص 777

[39]. ينظر بن زروق(حسين)، النظريات العربية حول حصول ملكة اللسان، مرجع سابق، ص171

[40] . عيد (محمد)، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، عالم الكتب، القاهرة(د–ط)، 1971، ص134

[41] . ابن خلدون، المقدمة ،مرجع سابق، ص725

[42]. المرجع نفسه، ص 732

[43] . المرجع نفسه، ص 734

[44] . عيد (محمد)، الملكة اللسانية، مرجع سابق، ص140

[45] . ينظر ابن خلدون، المقدمة ، ص734

[46]. ينظر عبد العليم(إبراهيم)، النحو الوظيفي ، دار المعارف، القاهرة ، ط4،(د. ت)، المقدمة

[47] . ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص776

. ينظر بودلعة(حبيبة)، النظرية الخليلية الحديثة وكيفية توظيفها في تدريس اللغة العربية ، الجملة الاسمية

[48]انموذجا، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 2000، ص47

[49] . للاستزادة ينظر ابن خلدون ، المقدمة ، مصدر سابق، ص 777

[50]. الابراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1978،1، ج2، ص300